المحاضرة الرابعة

مفهوم الشعر عند النقاد المشارقة والمغاربة:

إن الشعر ديوان العرب ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون ، وظل هذا النوع من الكلام يحفظ ويتناول في البيئة العربية قبل الإسلام وبعده جيلا بعد جيل.

وقد دخلت لفظة " شعر" بيئة النقد الأدبي ، واكتسبت دلالة اصطلاحية ، إذ شرع النقاد المشارقة والمغاربة يضعون تعريفا لها ، ولكنهم تباينوا في ذلك لتباين مصادر ثقافتهم واتجاهاتهم البلاغية والنقدية.

تطرق جل النقاد القدامى إلى الحديث عن نشأة الشعر العربي وماهيته ، لما للشعر من مكانة رفيعة عندهم ، بحيث كان الشعر ديوان العرب ، ومنتهى اهتمامهم ، و أسمى حكمهم، فيه يأخدون و إليه يصيرون ، كلف به الناس وتعلقوا به ، وظلوا يحفظونه ويتداولونه ويتراوونه في البيئة العربية قبل الإسلام وبعده .

وقد أصبحت لفظة "شعر" كلمة معروفة في بيئة النقد الأدبي العربي ، ومع مرور الوقت اكتسبت دلالتها الإصطلاحية ، وطفق النقاد في المشرق والمغرب العربيين يجتهدون لوضع تعريف لها ، وحاولوا تحديد مفهوم الشعر، وتوضيح معالمه وكشف خصائصه ورسم معالمه، وبيان أدواته و آلياته التي تميزه عن النثر ، فدونوا تعاريف كثيرة مختلفة ، تبعا لاختلاف مصادر ثقافتهم واتجاهاتهم البلاغية والنقدية .

الشعر لغة :

ورد في لسان العرب في مادة (شعر) : " الشعر منظوم القول ، غلب على شرفه بالوزن والقافية... وربما سموا البيت الواحد شعرا حكاه الأخفش... وقال الأزهري : الشعر القريض المحدود بعلامات لا يتجاوزها ، والجمع أشعار ، وقائله شاعر لأنه يشعر ما لا

يشعر غيره أي يعلم ، وشعر الرجل يشعر شعرا : ، وقيل شعر قال الشعر ، وشعر أجاد الشعر ورجل شاعر والجمع شعراء... ويقال: شعرت لفلان أي قلت له شعرا والمتشاعر: الذي يتعاطى قول الشعر... وشاعره فشعره يشعره بالفتح أي كان أشعر منه وغلبه ..".

مفهوم الشعر عند النقاد المشارقة والمغاربة :

اهتم النقاد العرب القدامى بالشعر وحاولوا تمييزه عن النثر ، و قد كانت هناك محاولات منذ القرن الثالث واستمرت حتى ابن خلدون في القرن الثامن ، إلا أن الشعر يصعب "ضبطه ضمن أي تعريف مشروط ومحدود بشكل نهائي" .

يعرف الجاحظ (ت255هـ) الشعر بقوله : "فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير " ، وفي هذا مقارنة بين الشعر والرسم ، وهي مقولة لهوراس يؤكدها إحسان عباس الذي يعلق على هذا التعريف بقوله: " فلو تخطى الجاحظ حدود التعريف لوجد نفسه في مجال المقارنة بين فنين: الشعر والرسم ، بل أن تعريفه لا يخرج عن قول هوراس: الشعر والرسم" .

أما ابن طباطبا العلوي (ت322هـ) في كتابه عيار الشعر ، فقد عرف الشعر بقوله : "الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع، وفسد على الذوق ، ونظمه محدود معلوم ، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الإستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه ، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستعن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه " ، فهو يفرق بين الشعر والنثر وإنما يكمن الفرق في النظم ، والنظم عنده تخيير اللفظ والوزن والصياغة ، بيد أنه لم يذكر القافية صراحة ، وإنما جاءت متضمنة في كلامه، كما يرى جابر عصفور فهو يشير إلى أن هذا

التعريف "يحدد الشعر على أساس الإنتظام الخارجي للكلمات ، صحيح أن التعريف لا يشير صراحة إلى القافية إلا أنها متضمنة فيه" .

وفي نظر ابن طباطبا أن صحة الطبع هو وسيلة مهمة للوصول إلى نظم سليم يتمتع بخصائص الجودة ، ويمكن لمن اضطرب ذوقه أن يعمد إلى تعلم قوانين العروض فإن ذلك يساعده على بلوغ نفس مرتبة الجودة حسب ابن طباطبا .
ومن النقاد الذين ذكروا القافية صراحة قدامة بن جعفر (ت337 هـ) الذي يعرف الشعر بقوله " :قول موزون مقفى ، يدل على معنى " ، فقد أضاف ميزتي القافية والمعنى، وجعل الوزن والقافية هما السمتان الأساسيتان في التفريق بين الشعر والنثر.

ويأتي ابن رشيق (ت463هـ) مستفيدا مما سبقه ويعيد صياغة التعريفات السابقة بقوله: "الشعر يقوم بعد النية على أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية ، فهذا هو حد الشعر".

هذا ويجمع أكثر النقاد المحدثين أن النقلة الحقيقية في تحديد مفهوم الشعر جاءت على أيدي الفلاسفة الذين درسوا الفكر اليوناني وتأثروا به ، خاصة نظرية المحاكاة التي طبقوها على الشعر العربي ، حتى ظهر مصطلح جديد وهو "التخييل" الذي يقصد به التصوير الفني القائم على رؤية ذاتية ومقدرة إبداعية تجعل منه أساس عملية الإبداع الشعري .

وأول من يطالعنا في القرن الرابع الفرابي (ت339هـ) الذي يعرف الشعر بقوله:" الشعر هو الصناعة التي بها يقدر الإنسان على تخييل الأمور التي تبينت ببراهين يقينية في الصنائع النظرية والقدرة على محاكاتها بمثيلاتها".

أما ابن سينا (ت449هـ) فيرى أن المحاكاة عند المبدع تتحول إلى تخييل لدى المتلقي وبهذا يتحدد لديه مفهوم الشعر الذي يعرفه بقوله:" أن الشعر هو كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفاة " ، ونلاحظ في هذا التعريف أن هناك مقارنة بين شعر

العرب وغيرهم ، وأن العرب يتفردون في إضافة التقفية ، التي تعد سمة بارزة في الشعر العربي.

كما يتفق حازم القرطاجي(ت684هـ) مع ابن سينا في تعريفه للشعر مركزا على ما قاله، فقد جاء تحت عنوان (معرف دال على المعرفة بماهية الشعر وحقيقته) في قوله:" الشعر كلام موزون مقفى ، من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ويكره إليها ما قصد تكريهه ، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه. بها يتضمن من حسن تخييل له ، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأه تأليف الكلام وقوة صدقه ، أو قوة شهرته ،أو بمجموع ذلك ، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب ، فإن الإستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوى انفعالها وتأثرها" .

فهذا التعريف اشتمل على أهم الخصائص المميزة للشعر ، والمرتبطة بعملية نظم الشعر بالاساس ، فقد أشار إلى طبيعة الشعر المبنية على الوزن والقافية إلى جانب التصوير والخيال، كما أتى الناقد على ذكر تأثير الشعر في نفوس المتلقين ، وهو المقصد ذاته الذي يسعى كل شاعر إلى بلوغه بتوظيف الوسائل التي تحقق هذا المسعى .

ويقول في موقع آخر من الكتاب :"الشعر كلام مخيل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك، والتئامه من مقدمات مخيلة ، صادقة أو كاذبة ،لا يشترط فيها بما هي شعر غير التخييل " .

ويأتي ابن خلدون (ت808هـ) الذي يضع حد الشعر بقوله:" الشعر هو الكلام البليغ المبني على الإستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وما بعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به " .

وخلاصة القول ، إن المتمعن في مجمل التعريفات السالفة الذكر ، يظهر أن النقاد العرب القدامى قد توقفوا عند مسألتين بارزتين : الأولى: تتعلقبالشكل أوالمظهر الخارجي للشعر ،

أو السمات التي تميزه عن النثر كالوزن والقافية، وهذا ما تطرق إليه ابن طباطبا وقدامة وابن رشيق ،والثانية تتعلق بصناعة الشعر ، فالشعر صناعة لفظية أو صناعة عقلية ، أي له قوانين لا بد من فهمها واستيعابها ومن ثم تطبيقها ، وهنا يبدو التأثر بنظرية المحاكاة لأرسطو، وبناء على هذا يصير الشعر تعبيرا لغويا له سماته التي تميزه كالوزن والقافية، أساسه التخييل والتصوير .